المقتطف

الجزء الرابع من السنة الثانية والعشرين

١ ابريل (نيسان) سنة ١٨٩٨ — الموافق ١٠ ذي القعدة سنة ١٣١٥

تعلُّم الحيوان

ثور يقود جملاً . امرٌ غريب لذاته لكنهُ ليس من اغرب ما يفعلهُ الحيوان الاعجم . كنَّا بالامس مارّين مع بعض الرفاق بجانب قرية صغيرة فرأينا جملاً مربوطاً بقرن ثور والثور يقودهُ وهو يمشي وراءهُ صاغرًا الى ان بلغا المرعى المقصود فوقف الثور يرعى والجمل يرعى بجانبهِ وكأنهما اخوان رضيعا لبان صغيرهما الكبير وكبيرهما الصغير والثور على ما يوصف بهِ من البلاهة فائدٌ والبعير على ما يعهد من فطنتهِ مقود . ومن يراقب الحيوانات كبيرها وصغيرها وحشيَّها والينها يرى انها ليست آلات صماء كما قال عنها ديكارت الفيلسوف الفرنسوي بل كائنات تشعر وتدرك وتجرب وتستفيد وانها مثل الانسان في ان كبارها تعلِّم صغارها وانها تتعلَّم من الانسان اموراً كثيرة لم تكن تعلمها من قبل وان النجاح في تعليمها كالنجاح في تعليم الانسان يقوم باستعمال العنف مرةً واللين اخرى والترهيب والترغيب . والشواهد على ذلك كثيرة نورد منها ما يحتمله المقام

يولد الحيوان كما يولد الانسان وفيهِ قوًى كثيرة كامنة تظهر رويدًا رويدًا في مواقيتها . فمعدتهُ المستعدة لهضم الطعام النباتي او الحيواني لا تهضم عند ولادتهِ الاَّ اللبن الذي يرضعهُ ولكن قوتها على هضم الطعام الغليظ الموروثة من اسلافهِ تظهر فيها حالما يصير قادرًا على اكل الطعام الغليظ من غير ان يعلمهُ معلم . وقس على ذلك قوة توليد النسل وسائر القوى الطبيعيَّة فانها كلها موروثة وتظهر في مواقيتها . وغنيٌّ عن البيان ان هذه القوى لم تكن كذلك في كل الازمان الغابرة ولا في كل انواع الحيوان بل ان الاختبار واحوال الزمان والمكان ولَّدتها في

الاسلاف رويداً رويداً مدة القرون الكثيرة التي تولّدت فيها انواع الحيوان وتوزّعت

والغالب ان الحيوان اذا ترك لنفسه بعد ان يُولَد يعرف كيف يعيش فيجد طعامهُ ويتقي اعداءهُ . وكثيراً ما نرى الوالدين من الحيوان يطردان ولدهما حالما يبلغ السنّ الذي يستطيع فيه ان يسعى لنفسه كما يفعل في الطيور فالحمامة مثلاً على ما بها من العطف على فراخها وهي في عشها اذا كبرت تلك الفراخ طردتها منهُ والجأتها الى السعي لنفسها . والنسر يطرد فراخهُ من عشهِ حالما تكبر بل يطردها من كل الاماكن المجاورة لهُ مع انهُ مشهور بالعطف عليها وهي صغيرة . لكن النسر وكثير الطيور لا تترك فراخها الاَّ بعد ان تعلّمها الطيران والانقضاض على الفرائس او بعد ان تمرّنها على استعمال قواها الطبيعيَّة . قال بعضهم انهُ رأى الصقر يحلّق في الجوّ ثم يرمي بالفيران الميتة لفراخهِ لكي تنقضَّ عليها وهي طائرة فتتمرَّن على سرعة الطيران وعلى تقدير الابعاد . ومتى كبرت صار الصقر يرمي لها طيوراً حيةً لكي تنقض عليها وهي طائرة

والغالب ان الاعتناء بالصغار منوط بالام لا بالأب كما هو في الانسان فالبطة تقود فراخها الى الماء بعد ما تولد وتختار لها الأنارق اولاً لكي لا تغرق فيهِ وتمرنها على السباحة وعلى صيد الذباب والحشرات واما ابوها فلا يعبأ بذلك . وانثى الايدر وهو من طيور البحر تحمل فراخها الى الماء فرخاً فرخاً بمنقارها وتعلمهنَّ السباحة والغوص على السمك واذا تعبن غاصت تحتهنَّ وحملتهنَّ على منكبيها وصعدت بهنَّ الى الشاطئ واما الاب فلا يفعل شيئاً من ذلك . ومعلوم ان فراخ الطيور تطير وتسبح بالغريزة التي فيها وغاية ما تفعلهُ امها انها تطير او تسبح امامها لكي تحركها الى الجري بحسب غريزتها لكنها قد لا تقتصر على ذلك بل تمرّن فراخها على الطيران والسباحة تمريناً حتى تخبرن فيهما . ويساعدها في ذلك صوتها فانها تزجر بهِ صغارها او تردّد اليهنَّ كأنها تستنجح ما يفعلنهُ اذا اخطأنَ وتستحسنهُ اذا اجدنَ ولا تزال تناديهنَّ بصوتها كما ترى في الدجاجة الرقناء حتى تنبّه سواكن غرانيقهنَّ وتدرّبها في السبيل الذي يكفل لهنَّ الحياة والنمو

وبعض الطير يعلّم لغتهُ لصغاره فيجتمع عصائب في الصباح والمساء ويشرع يثقّ او ينعب او يصدح او يزقزق . والكبار تقود الصغار في ذلك والصغار تقتدي بالكبار التي تعلم لغة نوعها . وقد رأينا ذلك في الغربان مراراً وكثيراً اما رأينا عصفوراً من العصافير المزقزقة كالكنار والحسون يعلم الغناء لعصفور آخر من نوعهِ او من نوع آخر فيتعلم الحسون غناء الكنار والكنار غناء الحسون . وقد يتعلم كلاهما غناء الانسان فقد قيل ان بعضهم علّم زرزوراً غناء المرسلين فكان يغنيها صغيراً غير ان ذلك من غرائب الطبع ولا ترتقي الغرائب وتصير غريزة الاَّ اذا

تكررت مرارًا كثيرة فهي مثل الدروس التي يتعلمها اولادنا قُبَيْل الامتحان قليلة الاقامة في الذهن فينساها الولد حالاً ان لم يكرّر الدرس عليها

وقد رأى الباحثون امورًا كثيرة تدلُّ على تعليم انثى الحيوان لصغارها فالدببة تقضي زمانًا طويلاً في تعليم اجرائها المشي والاعتراش والأكل واذا خالفنَ لها امرًا ضربتهنَّ بكفها او أنّبتهنَّ عضًّا وهنَّ لا ينفرنَ منها ولا يأخذنَ بثارهنَّ ولو كبرنَ وسرنَ اشدَّ منها بأسًا. وشاهدَ بعضهم فيلةً تعلّم ابنها السباحة وتصلح خطأهُ اذا اخطأ . وشاهدتا هرة تعلم جروها الوثب على فارة واذا حاولت الفارة الهرب ضربتها بيدها ودفعت جروها الى الوثب عليها . والحيوانات التي تقيم السدود او تبني البيوت كالبدستر تعلّم صغارها الاقتداء بها باشراكها معها في العمل وتدريبها عليهِ

وقد شاهد كثيرون اللبوة تعلم صغارها القرّ والقفز. وذكر موفات المبشر المشهور ان اسدًا وثب على حمار الوحش المخطط (الزبرا) فاخطأهُ لانهُ اخطأ تقدير البعد الذي كان بينهُ وبين الحمار فلم يجرِ وراءهُ بل جعل يعيد الوثبة مرةً بعد اخرى حتى يتم تقدير الابعاد وجعل قوة الوثب بموجبها . وانقلت عليهِ اسود أُخرى وهو يفعل ذلك فشي معها وأراها المكان الذي كان الحمار فيهِ ثم عاد الى الصخر الذي وثب عنهُ اولاً ووثب منهُ امامها وهي واقفة حولهُ تراهُ وتزأر كأنها تستحسن عملهُ او تشاركهُ في الاسف على ما فات

والتمرّن على الاعمال يزيد بعض الحيوانات حنكةً ومهارة ولذلك ترى العش الذي يبنيهِ الفرخان في السنة الاولى من حياتهما اقل اتقانًا من العش الذي يبنيانهِ بعد سنتين او ثلاث. والمأثرة الكبيرة اصغر من الصغيرة في الضرب من المرّ والاحتيال على المعيشة

واذا كان الاعتناء بالصغار غير موكول الى الام بل الى الخنثى كما في النحل والنمل قامت الخنثى بهِ احسن قيام كالام . وقد اتخذ بعضهم ذلك دليلاً على ان النحل والنمل يجب ان لا يرثا شيئًا من اخبار اسلافها لان الوالدات منهما غير عاملات والعاملات غير والدات لكنَّ الباحثين في طبائع النمل رأوا الام تساعد الخنثى في عملهنَّ قبل ان تتزاوج فثبت من ذلك انها تختبر الاعمال التي يعملها نوعها وتورث هذا الاختبار نسلها . لكن هذا لا يكفي لتدريب الصغار على العمل لاسيما وان اعمال النمل كثيرة تقتضي مهارة وحنكة وتقديرًا للعواقب بل منها ما يفوق اعمال الناس في التقدير والتدبير ولا يستطيع النمل ذلك لو عاش منفردًا ولكنهُ يعيش جماعات كما لا يخفى فيعلّم بعضهُ بعضًا و يستفيد بعضهُ من بعض وهذا سرٌّ ما يُرى في قراهُ من الاعمال الدالة على الحزم والتدبير كالغزو والحرب واتخاذ الاسرى واقتناء

الوحشي وحرث الارض وزرعها واستغلالها وذخر الحبوب وتربية النحل وغير ذلك مما تراه مفصلاً في ما كتبناه عن صنائع النحل

ومما يذكر من امر النحل ان الانثى التي يأمرها من عمل آخر وهي بيظ صغير تموت عندهُ وتخلق بغير اخلاق نوعها لأنها لا ترى احداً من نوعها لتقتدي به في اعمالها . وهذا شأن فراخ الدجاج فانها اذا ربيت وحدها بعيدةً عن الدجاج الكبير لم تعلم حسوَ الماء ورفع المنقار بعد ذلك كما تفعل الدجاج عادةً وذلك مثل الاطفال الذين يعوَّدون من صغرهم على شرب اللبن بالملعقة فانهم يفقدون حالاً غريزة الرضاعة مع انها طبيعيةٌ فيهم

والاستقراء يدلُّنا على ان كل ما فيهِ مراكز عصبيَّة فهو معدٌّ لان يتعلَّم وان التعليم اذا تكرَّر غيَّر الملكات الطبيعيَّة التي تدعوها غرائز ولو بعض التغيير . والظاهر ان الانسان لم يفلح في تذليل كل الوحوش ونزع الطبع الوحشي منها وتعويدها الانس والالفة لانها لم تكن مستعدة لذلك على حدّ سوى فالتي تعيش آجالاً وهي وحشيَّة كالغنم والبقر والخيل ويخضع صغيرها لكبيرها وضعيفها لقويها فيها ميل الى الالفة والخضوع فسهل على الانسان ان يذلل طبعها الوحشي ويجعلها اليفة واما التي تعيش منفردة كالاسود والذئاب فالخلق الوحشي متمكِّن منها ولذلك تعذَّر عليهِ جعلها داجنة . الاَّ ان ذلك لا يؤخذ على اطلاقهِ فالغزلان تعيش امراباً كبيرة ومع ذلك لم تدجن والقطط تعيش منفردة كالنمورة ولكنها دجنت منذ عهد قديم . ولعلَّ هذا التناقض ظاهري فقط فان النمر على طول اقامتهِ مع الانسان اقرب الى الشراسة من الغزال وكثيراً ما رأينا اجراءهُ تهمل قليلاً في صغرها فتصير شرسة وحشية كالوحش ما يكون من الضواري . والغزالة تأتي بها من الغفر فتتدرَّج منها وتطعمها يدك ولا تخشى بأسها . ومهما يكن الحيوان ضارياً فان انثاهُ تألف في زمن المزاوجة . وصغار الضواري اليفة ايضاً ويسهل تذليلها وتعليمها ولكن اذا ذللت بالعنف جأت الى الحيلة واظهرت التذلل ظاهراً وبقيت على طبعها الوحشي باطناً حتى اذا حانت لها فرصة للتنكُّر بصاحبها اغتنمتها حالاً

والخيل على ما بها من الدعة عند العرب الذين يعتنون بها اكثر مما يعتنون باولادهم تراها شرسة جموحة عند الذين يسيئون سياستها ويعاملونها بالعنف . اما الخيل العربيَّة فتألف اصحابها ويألفونها من حداثتهم

فكأنها تبنت قياماً تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

كما قيل فيهم وفيها . ولذلك تراها تميز اصحابها وتعرفهم بصوتهم ورائحتهم وتفتهم بهم الخاطر وتفتديهم بنفسها

والحيوانات المشهورة بذكائها كالكلب والفيل لا يجد الانسان مشقّة كبيرة في تعليمها. اما الكلب فقد دجن منذ عهد طويل جدًّا بل هو اول الدواجن لكن اصنافهُ كثيرة من كلب ارمنت الوحشي الى الكلب الاوربي الصغير الذي يقيم في جيب صاحبهِ او حاضيتهِ. وهُما لا يكاد يفقه شيئًا الى ما يتعلم الحركات العسكرية كالجنود ويرافقها الى ساحة القتال وينال التياشين يساويهِ مثلها. وقد شاهدنا بعض كلاب الرعاة تسوق المواشي الى المراعي البعيدة وتتولّى حراستها في النهار ثم تعود بها مساء الى مزاربها وشاهدنا كلبًا يترك المواشي سائمة نهارًا وليلاً اياماً متوالية ثم يناديهِ صاحبهُ ليمضي ويأتي بها فيمضي حالاً ويعود بها وقد تكون على ميل او اكثر من البيت. لكن الكلب يُولد بين المنازل ويتدرَّب على طاعة الانسان من صغرهِ فما قولك بالفيل وهو يولد في القفار ويُمسك كبيرًا فيتعلَّم بسهولة ويساعد الانسان في كثير من الاعمال ويفعل افعالاً تدعو اليها الاحوال الجديدة ٱلَّتي تعرض لهُ كأنهُ انسان عاقل. لا غرو ان قواهُ العقليَّة اغنى من قوى الكلب وارقى

ومن هٰذَا القبيل القرود التي تتدرَّب على اعمال كثيرة ولو سُكت كبيرة والمرجح انها لو سكنت الانسان قرونًا كثيرة كالكلب وولدت بين منازلهِ مثلهُ لكانت الآن من اكبر خدمهِ. اما الكلب فاصلهُ بريٌّ وحشي كالذئب ولم تزل الكلاب عند بعض الاقوام وحشيَّة لا تنبح ولا تظهر شيئًا من التودُّد للناس. وهي على طول اقامتها مع الانسان لم تتولد فيها حتى الآن مراكز عصبيَّة ثابتة للاخلاق الجديدة ٱلَّتي تخلَّقت بها من الاقامة مع الانسان فتعود الى الطبع الوحشي اذا تُركت صغيرة بين الكلاب الشاردة

وساكنة الانسان لم تفد كل الحيوانات من حيث التعلُّم والادراك فان الغنم والبقر التي تربى للذبح والسلخ فقدت كثيرًا من الغرائز ٱلَّتي كانت تعتمد عليها وهي وحشيَّة تسعى لنفسها في طلب الرزق واتقاء الخاطر وصارت آلات لجمع اللحم والشحم ولا سيما عند الذين يكثرون الاعتناء بها ولا يتركونها تسعى لنفسها. اما الثور الذي اشرنا اليهِ في صدر هذه المقالة فمن ثيران قرية صغيرة بقرب اسيوط وقد عُوِّد منذ صغرهِ السعي لنفسهِ مثل غيرهِ من مواشي هٰذَا القطر

وقد تتعلم الحيوانات بعضها من بعض اذا ربيت معها كما اذا ربي جرو الكلب مع القطط فانهُ يصير يلحس يدهُ ويمسح بها وجههُ مثلها. وكذلك اذا ربيت العصافير المزقزقة في قفص واحد تعلَّم بعضها غناء بعض. وليجث في هٰذَا الموضوع يدعونا الى البحث في موضوع آخر اهم منهُ وهو البحث في العقل والغرائز كما ترى في المقالة التالية